أثر إعجاز القرآن التشريعي

في التربية العقلية

إعداد

د. أحمد عيسى محمود حماد

أستاذ مساعد - جامعة سنار - السودان

الفصل الأول

الإطار العام

مقدمة

القرآن العظيم جاء بهدايات كاملة تامّة، تفي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان؛ لأن الذي أنزله هو العليم بكل شيءٍ، خالق البشرية والخبير بما يُصلحها ويُفسدها، وما ينفعها ويضرّها، فإذا شرع أمراً جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة: [أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ][الملك ١٤].

ويزداد الوضوح عند التأمل في أحوال الأنظمة والقوانين البشرية التي يظهر عجزها عن معالجة المشكلات البشرية ومسايرة الأوضاع والأزمنة والأحوال، مما يضطر أصحابها إلى الاستمرار في التعديل والزيادة والنقص، فَيُلْغُونَ غداً ما وضعوه اليوم؛ لأن الإنسان محلّ النقص والخطأ، والجهل لأعماق النفس البشرية، والجهل بما يحدث غداً في أوضاع الإنسان وأحواله وفيما يصلح البشرية في كل عصر ومصر.

وهذا دليل حسّي مُشاهد على عجز جميع البشر عن الإتيان بأنظمة تُصْلِحُ الخلق وتقوّمُ أخلاقهم، وعلى أن القرآن كلام الله سليم من كل عيب، كفيل برعاية مصالح العباد، وهدايتهم إلى كلِّ ما يُصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة إذا تمسكوا به واهتدوا بهديه، قال تعالى: [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا] [الإسراء:٩][1].

مشكلة البحث:

تظهر مشكلة البحث في إظهار الإعجاز التشريعي ومدى مسايرته ومطابقته لواقع البشرية زماناً ومكاناً، وتأثيره في واقع حياتهم، وخاصة ونحن الآن نعيش في ظلام دامس جراء البُعد عن تطبيق هذا التشريع في واقع حياتنا، الأمر الذي يحتم علينا شرعاً تطبيقه في عالمنا الإسلامي، وأثر ذلك في التربية العقلية.

أهمية البحث:

وتبرز أهمية هذا البحث من أهمية أثر العلاقة بين التشريع الرباني والتربية العقلية، ويظهر ذلك في حفظ العقل وتنميته، وإبعاده عن الزيغ والضلال، لأن هناك مَنْ أفرط في هذا الجانب، وهناك من فرّط في الاستفادة منه. والتربية الإسلامية لا تغالي فيه ولا تجافيه، بل ترده في مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. تظهر أهمية البحث في الآتي:

- التعرّف على الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، لحل قضايا البشرية.
- إظهار سماحة التشريع الإسلامي، ومدى مسايرته لواقع الحياة زماناً ومكاناً.
- إظهار علو كعب التشريع الإسلامي، وأثره في التربية العقلية.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن مدى صلاحية الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم وأثره في التربية العقلية بالنسبة للمسلم، وهذا بدوره يفتح المجال للبشرية جمعاء لكي تستفيد من هذا التشريع لأنه يلبي طموحاتها في شتى مناحي الحياة، وخاصة الجانب

(١) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة - المفهوم، والفضائل، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ص٥٤.

التربوي، الأمر الذي يجلب لها السعادة في هذه الدنيا، وللمسلمين في الدارين، لأن الدنيا مطية الآخرة.

أسئلة البحث:

السؤال المحوري هو: إلى أي مدى يمكن أن يؤثر التشريع الإسلامي في التربية العقلية بالنسبة للفرد والمجتمع. ويتفرع منه:

- ما مدى الفائدة التي تظهر في المجتمع من تطبيق شرع الله في الأرض.
- إلى أي مدى يمكن ظهور الأثر التربوي العقلي عندما يطبق الإعجاز التشريعي في المجتمع.

منهج البحث:

اتبع الباحث المنهج الوصفي في دراسته، لأنه يتساير مع مثل الدراسة.

مصطلحات البحث:

- الإعجاز التشريعي: يقصد به التحدي الذي يظهر في تشريع الله سبحانه وتعالى.، ويقف البشر حياله موقف العاجز.
- التربية العقلية: يقصد بها التربية التي تتم عن طريق نعمة العقل التي تميّز بها الإنسان عن سائر المخلوقات.

الفصل الثاني

الإطار النظري

تمهيد:

من المعلوم فيما أجمع عليه علماء القانون والاجتماع، أن آخر ما يتوج به تقدم أيّ جماعة أو أمة في نهضتها المدنية والحضارية، هو تكامل البنية القانونية والتشريعية في حياتها. أي إن ظهور صياغة قانونية متكاملة في الأمة يعدّ الثمرة العليا لتقدمها الحضاري.

ولا يمكن أن تنعكس هذه الظاهرة بحال من الأحوال، إن لم تصادف وجود جماعة من الناس بدأت سيرها في طريق الرقي والحضارة بإرساء بناء قانوني متكامل لحياتها، بحيث جعلت منه منطلقها إلى الثقافة والرقي الاجتماعي والاقتصادي والعلمي. ذلك لأن الأمة التي لم تتقدم حضارياً بعد، والتي لا تزال تعيش في عهد البداوة وفي ظل الأعراف القبلية، ليس في حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يشعرها بالحاجة إلى سن قانون ووضع تشريع. غير أنها تزداد شعوراً بذلك، تدريجاً كلما تقدمت حضارياً وازداد تركيبها تعقيداً[1].

أودع الله في الإنسان كثيراً من الغرائز التي تعتمل في النفس وتؤثر عليها في اتجاهات الحياة، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال. لهذا كان لابد

(١) محّمد سَعيد رَمضان البوطي، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ص١٥٣-١٥٤.

لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه، تهذبها وتنميها، وتقودها إلى الخير والفلاح.

والإنسان مدني بالطبع، فهو في حاجة إلى غيره، وغيره في حاجة إليه، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري. وكثيراً ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة، فلو تُرِك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم، وينظم أحوال معاشهم، ويصون حقوقهم، ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى، ولذا كان لابد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه، ويحقق العدل بين أفراده.

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة وشائج قوية لا تنفصم عراها، فإن هذا يقوم على تلك، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة، وصلاح الجماعة بصلاح الفرد.

وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، ولكن واحداً منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي.

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد؛ لأنه لبنة المجتمع ويقيم تربيته على تحرير وجدانه، وتحمله التبعة. ويحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التي تُخَلِّصه من سلطان الخرافة والوهم، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات، حتى يكون عبداً خالصاً لله، يتجرد للإله الخالق المعبود، ويستعلي بنفسه عما سواه، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه، الذي له الكمال المطلق، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها[1].

وللتشريع كما هو معلوم أحكام وافية بمطالب البشر في كل زمان ومكان، وفي كل حكم من أحكامه ضرب من الإعجاز التشريعي، ويكفي أن نعلم أن هذا التشريع على كثرة قوانينه وفروعه ومسائله يخلو تماماً من التناقض والاختلاف، والزيغ والانحراف،

(١) مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ص٢٨٤.

[وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا][1].

إن إعجاز القرآن أمرٌ متعدد النواحي متشعبُ الاتجاهات ومن المتعذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخصٌ واحد ولا حتى جماعة في زمنٍ ما مهما كانت سَعَةُ علمهم واطلاعهم وتعدد اختصاصاتهم إنما هم يستطيعون بيانَ شيءٍ من أسرار القرآن في نواحٍ متعددة حتى زمانهم هم، ويبقى القرآن مفتوحاً للنظر، لمن يأتي بعدنا في المستقبل ولِمَا يَجِدُّ من جديد. وسيجد فيه أجيالُ المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم يخطر لنا على بال[2].

الأخلاق:

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون وما فيه، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عدداً وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم، قد اختار لهذا المخلوق المعزز دستوراً في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى، ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم، حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة والرفاه في الدنيا ويشعر بإنسانيته الحقة، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر المخلوقات، كما ضمن الله سبحانه وتعالى له السعادة في الآخرة استمراراً لسعادته الدنيوية [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ][الأعراف:٣٢].

---

(١) محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الناشر: دار المنار، ص٣٧٥.

(٢) فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ط٣، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ص٥ -٦.

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة وتشريعه المستقل بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً] [المائدة:٥].

وينتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] [آل عمران:١١٠].

إن الجانب التشريعي والخلقي في القرآن الكريم لآية وأيما آية على كون القرآن من عند الله وليس من عند البشر.

فالأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطةً ودقةً وشمولاً.

يدل تاريخ الإنسانية على أنها لم تنجب مفكراً أو فيلسوفاً أو مصلحاً اجتماعياً استطاع أن يضع نظاماً كاملاً للعلاقات الداخلية والخارجية لدولة ما، وكم من حكيم حاول ذلك، ولكن نظرياته ظهر فيها النقص أحياناً والتناقض طوراً ومجانبة الصواب كثيراً، وثار على بعضها أتباعه في حياته أو بعد مماته.

ولا تزال هذه الظاهرة تتكرر إلى يومنا هذا في الأمم والشعوب التي لا تدين دين الحق، علماً أن هذه النظريات لا تتناول إلا جانباً واحداً بل وضيقاً من جوانب الحياة الاجتماعية، أما أن توضع نظرية متكاملة الجوانب للكون والمخلوقات والأفراد والجماعات في شتى صورها وحالاتها، فهذا مما يخرج من طاقة البشر مهما أوتوا من علم وحكمة، فما بالك إذا ورد مثل هذا النظام الكامل على لسان رجل أمي لم يشتهر في حياته بالاطلاع على كتب وفلسفات الأقدمين، ولم يعرف بالأسفار العلمية والتجوال في الآفاق بحثاً وراء الأنظمة

والتشريعات وبقيت تلك العلوم والمبادئ قروناً وأجيالاً كلما مر عليها دول وأزمان وتناولتها الأيدي والأفكار بالبحث والنقاش والنقد والتمحيص ظهر بريقها واشتد لمعانها وأدرك المنصفون من أهل كل عصر ربانية مصدرها وجدارة تطبيقها وصلاحها دون غيرها لكل زمان ومكان.

إن المبادئ السامية التي وردت في الشريعة الإسلامية وتضمنها القرآن الكريم برهان ساطع على مصدر القرآن الكريم ودليل صدق على نبوة محمد صلّى الله عليه وسلم وأنه تلقاها من لدن الحكيم الخبير، ليكون رحمة للعالمين[1].

إن المتعمق في دراسة التشريعات الإسلامية في مختلف مناحي الحياة يدرك إدراكاً واضحاً وجلياً أن هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإنسان إنسانيته وتطلق طاقاته الإيجابية نحو الكمالات البشرية، وتحفظ له نظرته المستقيمة، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية المادية وأشواقه الروحية، مع انسجام تام مع المحاكمات العقلية، مما يثمر الطمأنينة النفسية والسعادة في حياته الدنيا، وهي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة[2].

والشريعة الإسلامية لها جانب تربوي، يتضح في أسلوبها حين تعرض على طريق الترغيب والترهيب، أو أخذ العبرة من التاريخ، أو الحض على التقوى، ومخافة الله، ولذلك نجد كثيراً من الأحكام يعللها القرآن تارة بـ [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون][البقرة:٢١] ومواضع كثيرة في القرآن، وتارة بالتطهير والتزكية: [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا] [التوبة:١٠٣] وتارة.. وتارة.

(١) مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الناشر: دار القلم - دمشق، ص٢٣١ -٢٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٧.

وللشريعة جانب تطبيقي يتجلى في الأمر والنهي، والتحريم، والتحليل، والإباحة والحظر، والحدود، والعقوبات، والقصاص، والإرشاد إلى كيفيات وأساليب عملية، أو تعاملية معينة، في البيع والزواج وسائر العقود، وكثيراً من أمور الحياة[1].

أسس منهج القرآن التشريعي:

يقوم منهج القرآن في التشريع على أسس منها[2]:

أولاً: تربية الفرد: ومن شأن كل بناء أن يبدأ بالقطع الصغيرة يصفها بعضها إلى بعض حتى يصبح بناءً عظيماً، والأفراد هم لبنات المجتمعات وتهذيب الأفراد وتربيتهم تأسيس لبناء محكم متقن، ومن أسس هذه التربية:

- تطهير قلبه من أدران الشرك: ببيان أن هذه الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستحق العبادة، ووبخهم وشنّع عليهم: [قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ] [الأنعام:٧١]. وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ] [الحج:٧٣].
- غرس عقيدة التوحيد: وبعد أن نزع منهم عقيدة الشرك غرس في الأرض الطيبة عقيدة طيبة، وبعد أن نزع من قلوبهم عبادة الأصنام دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مثبتاً استحقاقه سبحانه للعبادة وحده دون سواه:[اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

(١) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط٢٥، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، الناشر: دار الفكر، ص٥٨.

(٢) فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط١٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٣٠١ - ٣١٤. (بتصرف).

يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ][الرعد:٢-٣].

ثانياً: بناء الأسرة: ومن بناء الفرد وتهذيبه، وإصلاحه وتقويمه إلى بناء الأسرة الواحدة المترابطة المتماسكة وشرع لها نظامها وأسسها فمن ذلك:

أ. الزواج: وهو الطريق الصحيح إلى بناء الأسرة، والأرض الصلبة التي يقوم عليها البناء، ولأهمية هذا الأمر وضرورته وحتى يجد الناس كلهم الدافع القوي لذلك جعل غريزة الجنس من أقوى الدوافع لسلوكه فهذبها بالزواج وحفظها بالآداب. وبيّن ما للزوج على زوجته من حقوق وما للزوجة على زوجها من حقوق: [وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ] [البقرة:٢٢٨].

ب. تربية الأولاد: ومن أسس بناء الأسرة حسن تربية الأولاد فهم أمانة في أعناق الآباء، لهم حقوقهم في حسن التربية والرعاية والنفقة، حتى وهو في بطن أمه المطلقة.

ج. بر الوالدين: وكما أمر الآباء بآداء حق الأولاد أمر الأبناء أيضاً ببر الوالدين وأوصى بذلك: [وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا] [العنكبوت:٨]، [فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا] [الإسراء:٢٣]. فإذا أدى الزوج حق زوجته وأدت الزوجة حق زوجها وأدى الابن حقوق والديه وأدى الآباء حقوق الأبناء أصبحت الأسرة متماسكة مترابطة تصلح وأي صلاح لبناء مجتمع قوي.

ثالثاً: بناء المجتمع: وإذا كان بناء الأسر يقوم على بناء الأفراد وهم لبناته فإن بناء المجتمعات يقوم على هذه الأسر، وقد رسم القرآن نظام هذا المجتمع ووضع له أسسه ونظامه، إذ لا يستقيم لمجتمع أن يظل على ترابطه ما لم يكن له حكومة تسوسه وترعاه، وتتفقده وتحميه وتنظم شؤونه، وترتب أموره، وجعل لهذه الحكومة نظامها وقواعدها

فمن ذلك:

أ. الشورى: وقد أمر الله بذلك نبيه ومن باب أولى ولاة الأمر من بعده: [وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ] [آل عمران:١٥٩]، [وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ][الشورى:٣٨]. ولأهمية الشورى سميت سورة كاملة باسمها.

ب. الحكم بما أنزل الله: ويجب على هذه الحكومة أن تحكم بما أنزل الله: [وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ][المائدة:٤٤]، [وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] [المائدة:٤٥]، [وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ][المائدة:٤٧].

د. العدل: الذي لا يفرق بين حاكم ومحكوم، وكبير وصغير، وغني وفقير، وعربي وعجمي، وأسود وأبيض، إلا بالتقوى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً] [النساء:١٣٥].

التشريع والعقل:

ويكمن فيما أودع الله في كتابه من القوانين الّتي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكلّ زمان أنّها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجدوا لها نظيراً، مهما بلغت العقول. ذلك أنّ التّشريع مبنيّ على تحقيق مصالح العباد في الدّارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور العلم، والنّقص بالطّبع، لكنّ الله سبحانه هو الخالق، فهو أعلم بخلقه وحاجتهم وما يكون به صلاحهم وفسادهم، [أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] [الملك:١٤].

فلذا جاء تشريعه موصوفاً بالحسن المطلق وبالحقّ المطلق، كما قال عز وجلّ: [وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ][المائدة:٥٠]، وقال: [وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً] [الفرقان:٣٣]، ولو كان من عند غير الله لما صحّ في العقول أن

يكون هو الحقّ المطلق، أو يكون أحسن قانون وتشريع، مهما رجحت العقول، فإنّه ما من قوم إلّا ولهم من الشّرائع والقوانين ما يسيّرون به شؤون حياتهم، لكنّهم لا يفتئون يغيّرون ويصلحون، ولو وصفوا قانونهم بالحقّ المطلق لتعذّر عليهم تبديله والاستدراك عليه، وإنّما هذه أوصاف لا تكون إلّا لما هو خارج عن قدرات المخلوقين [كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ][هود:١]. [وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ][فصّلت:٤١-٤٢].

فأنزل القرآن حين أنزل، وهو إلى اليوم، وسيبقى إلى آخر الدّهر، لا يجد النّاس سبيلاً إلى نقض شيء من أحكامه وشرائعه، مهما سعى الكفّار والّذين في قلوبهم مرض لإبطال ما جاء به من الحقّ والعدل والهُدى، كما لا يجدون سبيلاً للإتيان بما هو أحسن منه، إذ لا أحسن منه[1]. وهكذا نريد أن تكون التربية العقلية الإبداعية تهتم بالجانب التفكيري العقلي، وأن تجعله يستظل ويسير تحت مظلة الشرع الحنيف، لا في مقدمته[2].

ونجد أثر التصور الإسلامي في التشريع الإسلامي، وفي واقع الحياة العملية التي تقوم عليه واضحاً. وحين يقول الله في القرآن الكريم: [لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ] [البقرة:٢٥٥]. فإنه لا يقرر مجرد حقيقة تصورية اعتقادية إنما يضع قاعدة من قواعد الدستور للحياة البشرية ونوع الارتباطات التي تقوم فيها كذلك.

على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير.. مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك- سبحانه- لما في السماوات وما في الأرض.. مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية

(١) عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ، الناشر: مركز البحوث الإسلامية ليدز- بريطانيا، ص٢٨ -٢٩.

(٢) خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية، الطبعة: العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، ص٤٢٦.

أي شيء مما يقال: إنه يملكه ورد هذه الملكية لصاحبها الذي له ما في السماوات وما في الأرض.. مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم.. مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع، وحدة الشح والحرص، وحدة التكالب المسعور. وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق والسماحة والجود بالموجود وأن يفيض على القلب الطمأنينة والقرار في الوجدان والحرمان سواء فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب[1].

وليس الخلق النبيل في القرآن، عبارة عن السلوك الذي ينسجم مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخليقة المستحسنة، كما هي النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم في مقوّمات الفضيلة والأخلاق.

وإنما الأخلاق والفضيلة في القرآن، مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب وتساعد في إرساء قواعد السعادة الإنسانية للفرد والجماعة من جانب آخر. ومن ثم فأنت لا تجد في هذه المناهج السلوكية قابلية للاختلاف والتغيّر ما بين بيئة وأخرى، لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة، ولكنها انبثقت عن الفطرة الإنسانية الشاملة.

فمن المبادئ الخلقية في القرآن، اعتبار الناس كلهم، مهما اختلفت أعراقهم وأنسابهم وبيئاتهم، في مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية، ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بما يحرزه كلّ منهم من السبق بسعيه الخاص في ميدان الجهد الإنساني المفيد المشرف. [يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج١، ص٢٨٨. (بتصرف).

أَتْقاكُمْ] [الحجرات:١٣][1].

أثر الشريعة في تربية الفكر:

الشريعة الإسلامية أساس عظيم من أسس التربية الإسلامية، فهي بمعناها القرآني الواسع بيان للعقيدة، وللعبادة، ولتنظيم الحياة، ولتحديد تنظيم جميع العلاقات الإنسانية.

١. فهي أساس فكري يشمل كل ما رأينا من التصورات الفكرية عن الكون والحياة والإنسان، إنها تشمل موقف الإسلام من الإنسان أو نظرته إليه، ونظرة الإسلام إلى الكون والوجود، وعلاقة المسلم بذلك كله. وهي بهذا ترسم للمسلم صورة منطقية متكاملة ليتصور علاقته بالكون، وليعرف مبدأه، ومصيره وقيمته ومكانته، ووظيفته، وهدفه، وهي بهذا تصوغ عقل المسلم صياغة خاصة، تجعل قدرته على العطاء أعظم من طاقاته، وأمله أوسع من إمكانياته، مدى تفكيره أوسع من إحساساته.

٢. كما أنها تقدم للمسلم قواعد ونظماً سلوكية تجعل حياته مثالاً للدقة، والنظام والأمانة والخلق الرفيع، والمنهجية والوعي السليم، والتفكير في كل ما يعمل أو يريد عمله قبل الإقدام عليه، أي التصميم قبل التنفيذ، وهذا يربي عند المسلم عادة عظيمة ومفيدة، هي أن يفكر دائماً قبل أن يعمل، وأن يكون هادفاً ومتقناً، ومنتجاً في كل ما يعمل.

الشريعة تربي الإنسان على التفكير المنطقي عن طريق استنباط الأحكام غير أن أحكام الشريعة، كما جاءت في القرآن والسنة، بعمومها وشمولها، لم توضع لعلاج مواقف فردية، أو حالات جزئية بخصوصها، بل وضعت ليستفاد منها في كل العصور والأزمان، ولدى كل موقف يصادفه فرد، أو جماعة من بني الإنسان. ولذلك قال الفقهاء، وعلماء

(١) محّمد سَعيد رَمضان البوطي، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، عام النشر:١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص٢٢٠.

الأصول: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

ومن ذلك كانت مرونة الشريعة الإسلامية، وحيويتها، وقدرتها الدائمة على العطاء، وإصدار الأحكام في أحلك الظروف وأصعبها، وتقديم العلاج لكل داء اجتماعي، أو نفسي.

ومن هذه المرونة نشأت مرونة عقل المسلم، وقدرته النادرة على حسن المحاكمة والاستدلال؛ لأنه يتعلم ذلك منذ أن يحفظ في طفولته آيات القرآن، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويفهمها، فيفكر في تطبيقها على واقعة، فإذا كانت الآية أو الحديث قاعدة عامة، حصل القياس، أو ما يسميه المناطقة بـ"الاستنتاج"، وقام به العقل دون تصنع أو عناء[1].

وسائل حفظ العقل:

إن هناك حاجة ماسة لحفظ العقل البشري من وسائل الهلاك والدمار التي تواجهه من خلال وسائل مختلفة، وفي جوانب متعددة، تهوي به في الإتكالية على جهود الآخرين، أو تعطله عن مهامه بإشغاله فيما يضره ولا ينفعه، كوسائل اللهو المكثفة، والمخدرات المتنوعة، والبث المباشر الذي تسلل للبيوت، فانشغل الإنسان بالباطل عن الحق، وبالضار عن النافع، وبالمفضول عن الفاضل، مما يجعل المهام الملقاة على كاهل التربية ضخمة المسؤولية، من خلال المسجد والمدرسة والمنزل، والهيئات التربوية الأخرى.

وإزاء هذه التحديات التي في صراع مع منابع التربية يتأكد أهمية الوقوف على وسائل حفظ هذا العقل ليؤدي مهامه المطلوبة منه، فضلاً عن الإبداع المأمول، ويمكن إيضاح ذلك في النقاط التالية:

(١) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط٢٥، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، الناشر: دار الفكر، ص٥٥ -٥٦.

١. الأخذ بكل ما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية، دون قيد أوشرط، والإيمان بهما والعمل بمقتضاهما، دون الرجوع إلى أي منهج آخر للاحتكام إليه، قال تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا] [الحشر:٧]. وهذا أمر قطعي لابد من الإيمان والعمل به، ويقتضي هذا عدم تقديم العقل على الشرع، لأن العقل محدود، ناقص، وقد أثبت الله تعالى كمال الشرع وحاكميته عليه، ولا يصح تقديم الناقص حاكماً على الكامل، لأنه خلاف المعقول والمنقول، بل ضد القضية، وهو الموافق للأدلة. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا رأوا رأياً ووجدوا أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم خلاف ذلك عدلوا عن رأيهم ورجعوا للسنة. والتربية القائمة على هذا المبدأ تغرس في أفرادها الانقياد للشريعة الإسلامية، والإذعان لتوجيهاتها، مما ينمي في الفرد جوانب إبداعية من أبرزها:

أ. الدقة في التعامل مع نتائج الحضارات وفق النصوص الشرعية.

ب. صحة الفهم لمقاصد الشريعة التي تجعل المبدع يسخر إنتاجه لخدمة البشرية وصلاحها، لا لدمارها وإفسادها.

ج. سلامة المعلومات وصحتها من عدم تعارضها مع ما قررته الشريعة.

د. بذل الوسع في التحقق من صحة الاستنباطات والاستنتاجات.

ه. صدق التحليل والتفسير للظواهر والوقائع والحوادث الكونية والتاريخية في منأى عن الهوى والنزعات الشخصية.

٢. أن لا يكون العمل إلا بدليل شرعي فيما يخص الأعمال العقدية والتعبدية، والمعاملات، ولا يكون توجه الإنسان واجتهاده في حياته وأعماله العامة والخاصة إلا وفق المنهج الإسلامي. وهذا يجسد عند المسلم أهمية البحث العلمي وفق قواعده المعتبرة، مما ينعكس على إنتاجه الذي يرقى به إلى الدقة.

٣. محاربة البدع والشبه، عن محيط المجتمع الإسلامي، وتوعية الأمة بالعلم الصحيح، حتى لا ترتكس في بؤرة الجهل الذي يحجبها عن العمل الصحيح. فما انحطاط كثير من المجتمعات الإسلامية إلا لكثرة البدع والشبه، وتفشي الجهل الذي حط بظلامه وركابه بينهم.

٤. محاربة المسكرات والمخدرات بجميع أنواعها، واختلاف مسمياتها، لأنها حجاب فولاذي عن العمل والتفوق.

٥. أن يعرف الإنسان محدودية عقله، وأن لعقله حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها، قال الشاطبي رحمه الله "إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان، وما يكون وما لا يكون إذ لو كان كيف كان يكون؟ فمعلومات الله تعالى لا تتناهى، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى"[١].

والإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها، فهي هبة الله المنعم الوهاب، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة. لا يبخسها قدرها. ولا يعطيها فوق قيمتها. ويستغلها جميعاً إلى أقصى طاقتها لفائدة المخلوق البشري وصلاح حاله على الأرض. ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها، ويربيها لتتجه في طريق الخير[٢].

التربية العقلية:

تعمق نظم التربية الإسلامية، تلك التربية التي تعنى بالإنسان «جسداً، وعقلاً، وروحاً» فلا تكبت رغبات الجسد فيه، ولا تحد من قدرات العقل عنده، ولا تحصره في

(١) خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية، الطبعة: العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ص٤٦٦ -٤٦٨.

(٢) محمد بن قطب بن إبراهيم، منهج التربية الإسلامية، ط١٦، «د.ت»، الناشر: دار الشروق، ص٧٦ -٧٧.

دائرة المادة الفانية، وإنما تجعل لروحه مدداً متصلاً بالقوة الخفية في هذا الكون تستلهم منه النور الذي لا تراه الحواس ولا يدركه العقل.

ومن ينابيع تلك التربية سوف يهتدون إلى أسس العدالة والحق الذي اهتدى إليها المسلمون الأُول، وأنشئوا بها مجتمعات الإخاء والتضحية والإيثار والوفاء والمحبة، والتي أصبح العالم اليوم في حاجة إليها أكثر من حاجته إلى الغذاء والكساء والمأوى؛ لأن هذه وتلك لا توفر للإنسان الأمان والاستقرار النفسي كما توفره تربية متصلة بالله تطلق الإنسان من عقاله وتدخله دائرة السلام مع نفسه وأهله وولده وجماعته[1].

(١) عبد الرشيد عبد العزيز سالم، طرق تدريس التربية الإسلامية نماذج لإعداد دروسها، ط٣، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الناشر: وكالة المطبوعات، ص٩.

الفصل الثالث

أولاً: النتائج:

وفي ختام الدراسة توصل الباحث للنتائج التالية:

١. الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم يمتاز بالشمول، والمرونة، وتحقيق العدالة، وذلك بالاستناد إلى مصدره الإلهي الذي صانه من قصور الفكر البشري عن الإحاطة بواقع الحال، وإدراك متغيرات المستقبل.

٢. الإعجاز التشريعي للقرآن له تأثيره الواضح في التربية العقلية. الأمر الذي ينعكس على باقي الحياة.

٣. التربية العقلية السليمة بلا شك هي نتاج التشريع الإسلامي القويم، لأن القرآن الكريم دستور للإنسانية عامة، متى ما أنزلته في واقع حياتها سعدت بذلك، لأن صريح المنقول لا يتعارض مع سليم المعقول.

ثانياً: التوصيات:

وبناءً على النتائج فقد أوصى الباحث بالتالي:

١. يجب الاهتمام بقضية الإعجاز التشريعي في القرآن والسنة، لأنه استنهاض لعقول المسلمين واستثارة للتفكير الإبداعي فيها.

٢. يجب إنزال التشريع الإسلامي في واقع الحياة عامة وإظهار تأثيره في التربية العقلية في واقع الناس [أفراداً وجماعات]، لأن الإنسانية أحوج ما تكون لها الآن من أي وقتٍ مضى.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية، الطبعة: العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٣. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة - المفهوم، والفضائل، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.
٤. سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج١.
٥. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط٢٥، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، الناشر: دار الفكر
٦. عبد الرشيد عبد العزيز سالم، طرق تدريس التربية الإسلامية نماذج لإعداد دروسها، ط٣، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الناشر: وكالة المطبوعات.
٧. عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ، الناشر: مركز البحوث الإسلامية ليدز- بريطانيا.
٨. فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ط٣، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع، عمان- الأردن.
٩. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط١٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٠. محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الناشر: دار المنار.
١١. محمد بن قطب بن إبراهيم، منهج التربية الإسلامية، ط١٦، «د.ت»، الناشر: دار الشروق.

١٢. محّمد سَعيد رَمضان البوطي، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
١٣. محّمد سَعيد رَمضان البوطي، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، عام النشر: ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.
١٤. مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الناشر: دار القلم - دمشق
١٥. مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.